تضرعات قصيرة

إن احترام الذات هو أكبر محرك للنفوس العزيزة

جان جاك روسو

تضرعت إلى خالقها ، سكبت مزيج حزنها وأنينها أمام الله ، تذرفه في هيئة دموع غزيرة . وأخيراً تبسمت لأنها أحست بالراحة تجوب صدرها واليقين يملأ عقلها ، والإيمان يشق شكها وعجزها ، خلقت دميمة سمراء اللون لا جمال فيه ، ولديها شعر أشعث مموجا تموجات ليس فيها جمال ،

لم تكن تلك مشكلتها إنما عانت تلك الفتاة -البالغة من العمر الثلاثين- من عقل واعٍ وشخصية ناضجة مسجونة بداخل جسد قصير وصغير يشبه أجساد الأطفال ؛ فهي ممن يطلق عليهم الأقزام.

لا تتذمر أو تشكو الله خلقتها أو شكل هيئتها إنما كانت تذرف الدموع لتصرخ إلى خالقها من نظرات الخلق حولها التي تجرحها كثيراً ، تشعر إن العيون حولها تطلق سهام ونيران الشفقة ، تستشعر النظرات التي تتطلع إلي خلقتها وهيئتها وتطيل النظر إليها ولا تريد أن تحول الأعين عنها و كأنها مخلوق فضائي أو شيء قبيح ينظر ؛ تؤلمها تلك الأعين بسياطها وتحفر ندوبها في قلبها .

أحياناً كان الخجل يساورها عندما كانت طفلة ، وهي ترى جميع من حولها يكبرون وتتغير أشكال أجسادهم وهي مختلفة عنهم ، كانت تستمع لكلمات الجيران والأقارب عندما ينصحون أطفالهم ليلتهموا كل الطعام حتى ينموا بشكل صحي ويكبرون ؛ فتذهب تصرخ لأمها بسذاجة الطفال وبرائتها : لماذا .. ؟! أنا أنهي كل طعامي يا أمي فلماذا لا أكبر ! لماذا أبدو بتلك الحالة ؟ ... كانت تكتم بداخلها صيحات الأطفال الذين يعايرونها بجسدها الصغير طوال الوقت ، حتى كانت تشعر بأنها تريد أن تفرغ كل تلك الصيحات في فضاء فسيح يقدرأن يسع ما بداخلها ، كانت تغلق حجرتها وتصرخ بأعلى صوتها لتفرغ شحنة الغضب المرير التي تحملها في طياتها.

وعندما كبرت وتأقلمت وأدركت أن الله يعوض وأنه حباها مميزات وصفات مميزة عن غيرها ، كانت تصادف الإحباطات التي تعصرها وتدمي فؤادها ، فهي لا تستطيع أن تخفى في ذاكرتها الموقف السخيف ؛ عندما جاءها عرض للعمل بالمسرح ... دورها صامت لا آداء فيه أو قدرات ، كان صامتا لكنه كان مليء بالسخرية من خلقتها ومن هيئتها الصغيرة ؛ وكأن خلقة الله تستوجب السخرية والضحك .

و كم من عروض تلفزيونية انهالت عليها لتطل على المشاهدين في الشاشات حباً في استطلاع حياتها وتفاصيلها وكيف تمشي وكيف تخرج وكيف تعيش وكأنها كائن غريب جاء من الفضاء ليفضي بأسرار غامضة . كانت تلك الفتاة تقدر كيانها و تحترم خلقتها وتقدر نعمة الله في حياتها ، تتحمل مآسي صعبة ليس لها ذنب بها ، كانت تفتقد معني الاحترام ، وتسعى لتطلب إحساس الأخرين بها ، وتقديرهم لمشاعرها . فقط تريد أن تنظر في عيون الناس واثقة ، تجد الفخر والعزة والكرامة يلاحقونها ولا تتخبط داخل نظرات الشفقة التي تحاصرها .

ولا أحد يعلم أنها رغم قصر قامتها وضآلة جسمها إلا أن لها صرخات وتضرعات تصل إلى السماء في عجالة ، فهي تضرعات تلك القصيرة !